الانتشار الثقافي لألتوسر

-تقديم:

يكشف التحليل الحديث في مجال علم اجتماع التربية ولاسيما المرتبطة بالماركسية المحدثة أن نظرية إعادة الإنتاج سعت لتحليل عملية العلاقة بين المدرسة والنظام التعليمي والتربوي والعمل وأنماط الإنتاج الاقتصادي والاجتماعي والسياسي العالمي، ولقد اتخذت هذه الآراء لأصحاب نظرية إعادة الإنتاج مضمون الفكر الماركسي التقليدي كمحاولة منها لاختبار هذه النظرية في ضوء التغيرات الجديدة التي ظهرت بعد انقضاء قرن من الزمان تقريبا على الأفكار الماركسية التقليدية

حيث تبنت تحليلات ذات طابع تخصصي فعلى العكس من النظرية الماركسية التقليدية، اعتمدت على تحليل الوحدات الصغرى، بدلا من تحليل الوحدات الكبرى، كما لجأت إلى الدراسات الامبريقية، وهذا ما نحاول الكشف عنه من خلال عرض أفكار واحد من أهم المنظرين في ذلك:

-لويس التوسير (1918- 1990) فيلسوف فرنسي ولد في الجزائر ودرس في مدرسة الأساتذة العليا بباريس

يعتبر من أهم المنظرين الماركسيين في القرن 20 ، حاول تقديم قراءة للماركسية وللواقع بشكل جديد.

من أهم مؤلفاته (الإيديولوجيا والأجهزة الإيديولوجية) – (لأجل ماركس) – (قرأءة رأس المال).

- ألتوسير وسوسيولوجية التربية:

تعد تحليلات ألتوسير من أهم التحليلات الماركسية في إطار علم اجتماع التربية التي تبنت المنظور الماركسي المحدث، والتي اعتبرت النظام التعليمي والتربوي جزء من البناءات الفوقية، التي تتحدد معالمها تبعا للبناءات التحتية، تلك البناءات التي تعكس علاقات الإنتاج وتخدم الطبقة الرأسمالية المسيطرة .

ويعتبر ألتوسي أن "بعض المنظمات ومنها الشرطة والقانون والجيش والمحكمة. وهكذا كمشكلين لجهاز السلطة الرادع أو القيمي بالإضافة إلى هذا الجهاز السياسي، يوجد أخر فكري هو ما أسماه جهاز الدولة الفكري المتمثل في النظام التعليمي والإعلام وكذلك المؤسسات الدينية والثقافية.

وفي تصور ألتوسي أن العديد من المستويات المسيطرة على فترات زمنية مختلفة، ومن ثم فقد كان في المجتمع الحديث ، أن استمد النظام التعليمي من الدين سلطته كوسيلة أساسية لإيديولوجية القمع، حيث كان عمل كل من جولز وجينز 1975 على أن هناك تطابق بين احتياجات الرأسمالية ووظيفة التربية نظرية الممارسة الألتوسيرية (فليب جونز، 2010).

حيث يعتبرأن المؤسسة التعليمية واحدة من المؤسسات الهامة في المجتمع والتي تعمل على المحافظة على مصالح الطبقة التي تملك الثروة والسلطة والقوة، حيث تعمل جاهدة على تعليم أبناء الأغنياء، تعليم يحافظ على مكانتهم المرموقة، وعلى المناصب الحساسة في المجتمع، وفي نفس الوقت تعليم أبناء الفقراء، تعليم يسمح لهم فقط، بتولي وظائف متواضعة، أو يعلمهم حرف. وتعتمد في ذلك على المناهج الدراسية والكتب الدراسية .

لذا تحتل قضايا المنهج موقعا مركزيا عند مفكري مابعد الحداثة، باعتباره"نصا" يحتاج إلى إساءة قراءة من جانب الطلاب تكشف عن المسكوت عنه بداخله، ويستطيع الطلاب القيام بهذه القراءات

لمختلف أنواع المنتجات الثقافية. إذ يجب تدريبهم على التساؤل –مثلا- لماذا تقدم اللآراء والتعليقات الصحفية على اعتبار أنها حقائق؟. ولماذا تحذف التقارير الإخبارية بعض المعلومات ذات الصلة بما يحدث ما؟. ولماذا تناقش بعض القضايا في وسائل الإعلام ويتم إهمال البعض الأخر؟. وفي تدريس التاريخ –مثلا- يمكن للمعلمين أن يؤكدوا على ما أسماه ألتوسير بالتاريخ المضاد، فإلى جانب التاريخ الرسمي الموجود في الكتب المقررة، ينبغي أن يتعلم الطلاب نضالات السكان الأصليين، والجماعات العرقية المقهورة، والنظم السياسية الناشئة والبديلة . وهذه القراءة المعاكسة للتاريخ سوف تزود الطلاب بمنظور بديل، يستطيعون من خلاله إثارة التساؤلات حول الأيديولوجية المهيمنة عبر التاريخ.

وخلافا لذلك وفي التنظيمات الصناعية يعمل المدرس على تلقين تلاميذ أبناء العمال والموظفين البسيطين الخضوع والاعتراف بشرعية وحقوق الطبقة الحاكمة.

وبذلك يكون دور النظام التعليمي إعادة إنتاج تقسيم العمل وفقا للمستوى الاقتصادي والاجتماعي، أي أن تقوم المؤسسات التربوية بتزويد الذين ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة بقيم وسمات شخصية مناسبة للمكانات والأدوار المستقبلية لهم في البناء الهرمي، لتقسيم العمل كل حسب أصوله الاقتصادية الاجتماعية.

كما ركز ألتوسير على طرح أفكاره وتصوراته لتوضيح كيفية إعادة إنتاج قوى العمل من خلال عمليتين أساسيتين هما: أولا: إعادة إنتاج المهارات الضرورية من أجل الحصول على قوة عمالة فعالة، وثانيا: العمل على إعادة إنتاج إيديولوجية الطبقة الحاكمة والعمل على تنشئة العمال للاعتقاد بهذه الإيديولوجية وتصوراتها العامة. وهاتين العمليتين التي تشكلان إعادة إنتاج قوى العمل، تعملان على إعادة إنتاج القوة الفنية الفعالة والتي تكون خاضعة تماما للإيديولوجية الرأسمالية الحالية.

وهذا كما أشرنا من قبل يتحقق عن طريق التعليم والذي من أهم أهدافه في المجتمع الرأسمالي إعادة إنتاج القوى العاملة المناسبة. وتنجح في ذلك عن طريق السيطرة الإيديولوجية، التي لها الإمكانات والوسائل الفعالة للحفاظ على هيمنتها. خاصة وأن هذه الإيديولوجية، تعمل على إقناع هذه الطبقة المحرومة، تؤمن بطبيعة وضعها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وتتقبله.

وعن الوسائل الميكانيزمات التي توضع كيفية إنتاج إيديولوجية معينة للطبقة الحاكمة، خاصة وان عملية إعادة إنتاج قوة العمل لا تعتمد فقط على إنتاج مهارات، ولكن في نفس الوقت بالعمل على إعادة تكوين مجموعة أجهزة الدولة الإيديولوجية، والتي تشمل وسائل الإعلام الجماهيري، والقانون والدين، والتعليم، ويكمن دور هذه الأجهزة في نقلها لمكونات إيديولوجية الطبقة الحاكمة، والتي تعمل على إيجاد نوع من الوعي الطبقي المزيف، ذلك الوعي الذي يعمل على جعل الطبقة العاملة المحكومة خاضعة وتابعة بصورة مستمرة للطبقة الحاكمة الرأسمالية .

وبالرغم من تأثر ألتوسير بالطرح العام لماركس حول دور الدولة وأجهزتها المختلفة، في الحفاظ على مصالحها إلا أنه يختلف معه في الطرح، حيث نجد ماركس يؤكد على طبيعة العنف في قمع وقهر الطبقات العاملة، وفي المقابل استعمال نفس الأسلوب من طرف الطبقة العاملة، للحصول على حقوقها، وتغيير مكانتها، وملكية وسائل الإنتاج عن طريق القوة والثورة. إلا أنه يختلف معه في ذلك، حيث يؤكد دور الدولة وأجهزتها في السيطرة على الطبقات العاملة عن طريق إتباع أسلوب الإقناع ، والسيطرة الإيديولوجية التي تقوم بها مختلف مؤسسات الدولة وتستعمل كل الطرق التي تقنع بها الطبقة الدنيا بأنها مشروعة.